كرة القدم والاستعمار:
من أداة هيمنة إلى رمز للنضال الوطني

جمال مروان
باحث في سلك الدكتوراه جامعة محمد الأول
المملكة المغربية

الملخص:

لقد لعبت كرة القدم دورا اساسيا في تنفيذ سلطات الاحتلال لاجندتها الاستعمارية داخل مختلف الدول العربية بعدما ان تمكنت من نشر لعبة كرة القدم داخل مختلف الدول العربية رغم اقتصار ممارستها في البداية على نخبة اوروبية محدودة تتالف من المعمرين وعمال الشركات وعناصر الجيش وقد ساهمت كل من بريطانيا وفرنسا واسبانيا في نشر اللعبة في مناطق نفوذها باعتبارها وسيلة للسيطرة على الشعوب عن طريق نشر ثقافتها الغربية المسيحية

وبعد انتشار اللعبة داخل الاقطار العربية بصفة عامة والمغرب بصفة خاصة وتزايد عدد الاندية بالمغرب خلال فترة الحماية اصبحت كرة القدم جزء لايتجزا من العمل السياسي الوطني من خلال تمرير عدة خطابات ورموز مرتبطة بالهوية والثقافة الوطنية والاسلامية

الكلمات المفاتيح: كرة القدم–الاستعمار –النضال الوطني –التسييس

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

مقدمة:

لعبت كرة القدم دورًا محوريًا في التاريخ الاجتماعي والسياسي للبلدان العربية وشمال إفريقيا، خاصة خلال فترة الاستعمار. فقد ارتبطت نشأة هذه الرياضة وانتشارها بالقوى الاستعمارية التي رأت فيها أداة فعالة لتحقيق أهدافها الاستراتيجية والثقافية. ومع أن كرة القدم ظهرت بداية كلعبة نخبوية حكرًا على المعمرين الأوروبيين، فإنها ما لبثت أن تحولت إلى وسيلة نضال سياسي ورمز للمقاومة الوطنية. هذا المقال يحاول أن يستعرض الخصائص الأولى لكرة القدم الاستعمارية، وكيف انتقلت تدريجيًا إلى سلاح في يد الحركات الوطنية المطالبة بالتحرر والاستقلال، وصولًا إلى مرحلة ما بعد الاستعمار حين تبنت الدول الحديثة هذه الرياضة كجزء من مشروعها لبناء الهوية الوطنية وترسيخ السيادة السياسية.

أولا: خصائص كرة القدم الاستعمارية

ارتبط ظهور كرة القدم في الدول العربية وشمال إفريقيا بالقوى الاستعمارية؛ إذ عملت بريطانيا على نشر هذه اللعبة في مناطق الشرق الأوسط التي استعمرتها، مستفيدةً من وجود عدد كبير من المعمرين والشركات والجيش لاستغلال هذه المنطقة الغنية بموارد الطاقة، خاصةً أن بريطانيا كانت تعتبر نفسها مهد كرة القدم وحاملة لواء ابتكارها.

أما في شمال إفريقيا، فقد لعبت فرنسا الدور الحاسم في إدخال هذه اللعبة إلى الجزائر والمغرب وتونس، إلى جانب كل من إيطاليا وإسبانيا.

وقد تميزت البدايات الأولى لكرة القدم الاستعمارية بجملة من الخصائص، يمكن الإشارة إلى أبرزها فيما يلي:

– نخبوية كرة القدم:

عند إدخال لعبة كرة القدم إلى دول جنوب المتوسط، لم تكن متاحة أمام الجميع، بل كانت لعبة نخبوية؛ إذ كانت النخبة الحضرية هي التي وقفت وراء جلبها إلى بعض المدن، مثل القاهرة، والجزائر، ووهران، وفاس، والرباط، والدار البيضاء، ولا سيما رجال العسكر، والموظفين المعمرين، ورجال الأعمال[1].

ومن المهم الإشارة إلى أنه عندما انفصلت كرة القدم عن لعبة الركبي لأول مرة عام 1863 في إنجلترا، حافظت على طابعها النخبوي والإقصائي، وهو الطابع الذي تجلى بوضوح أكبر في المستعمرات، حيث ظلت اللعبة حكرًا على المعمرين خلال المراحل الأولى من الاستعمار.

– ذكورية لعبة كرة القدم:

كانت لعبة كرة القدم منذ القرن التاسع عشر لعبةً ذكوريةً بامتياز، سواء على مستوى اللاعبين أو المتفرجين، وقد حافظت على هذه الخاصية لفترة طويلة في الدول الأوروبية، حيث استغرق السماح للنساء بالدخول إلى عالم كرة القدم وقتًا طويلًا.

وإذا كان هذا هو الحال في أوروبا، فقد كان استبعاد النساء من لعبة كرة القدم مطلقًا في البلدان المستعمَرة، وذلك أولًا بسبب الطابع الذكوري الغالب على اللعبة آنذاك[2]، وثانيًا بسبب البيئة المحافظة في هذه البلدان العربية، حيث كانت النساء يخضعن لسلطة

[1] – يان بوس ورينيه وايندانجل، اللعبة المتمردة. تاريخ سياسي لكرة القدم في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بين العالمي والمحلي، سياسات عربية، العدد 57، يوليوز 2022، ص. 14.

[2] - GabrielKuhn, soccer Vs. The State tackling footbaal and radical, Politics Oakland, C.A :PM Press, 2011

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

التقاليد الإسلامية والمحلية، التي كانت تحرمهن من ارتياد الفضاءات العامة.

وبناءً على ذلك، كان من المستحيل الحديث عن حضور النساء في عالم كرة القدم في المغرب وباقي البلدان العربية خلال فترة الحماية، بل وحتى خلال مرحلة طويلة بعد الاستقلال.

– لعبة كرة القدم كآلية استعمارية بخلفيات متباينة:

لم تكن الدول الاستعمارية تهدف فقط إلى استغلال ثروات البلدان المستعمَرة، بل سعت أيضًا إلى السيطرة على الإنسان وتحويل ثقافته، ونشر الثقافة الغربية المسيحية. فقد اعتمدت هذه البلدان على القوة العسكرية والاقتصادية، بالإضافة إلى وسائل "القوة الناعمة"، ومن أبرزها كرة القدم.

ومع ذلك، لا بد من التمييز بين الاستعمارين البريطاني والفرنسي. فبريطانيا، باعتبارها مهد هذه اللعبة، قدمت كرة القدم إلى النخب المحلية في عواصم الشرق الأوسط من خلال تجارها وموظفيها وجنودها. وقد أصبحت اللعبة ممارسة للنخب المحلية أيضًا، حيث تم توظيفها كوسيلة لإظهار تقدم بريطانيا وحضارتها في هذا المجال. كما استخدمها البريطانيون كأداة لتهذيب السكان. ففي هذا السياق، "سمح البريطانيون للطبقة المصرية الراقية بالمشاركة في الأندية التي أنشأوها، وخوض أولى مباريات كرة القدم. كما أدخلوا التربية البدنية كدرس إلزامي في المناهج الدراسية"[1].

تم اعتماد كرة القدم كوسيلة لتعليم الأهالي القيم الأوروبية المتحضرة، التي تتماشى مع التراتبية واحترام القوانين، والسلطة الحاكمة، والمقصود هنا بالسلطة الاستعمارية. لذلك، شكلت كرة القدم واحدة من أبرز وسائل ضبط الأفراد وتعليمهم الالتزام بالقواعد والقوانين، كما كانت من أهم آليات السيطرة الاستعمارية[2].

أما بالنسبة للمستعمرين الفرنسيين والإيطاليين والإسبان، فقد شددوا على اعتبار كرة القدم وسيلة لترسيخ التمييز والتفرقة بين المستعمرين الأوروبيين والسكان المحليين، بما فيهم النخبة والطبقة الراقية، ولإظهار التفوق والتحضر الأوروبي. كانت لعبة كرة القدم في نظرهم لعبة المتحضرين، وليست لعبة الأهالي.

وعليه، لم يُسمح للمحليين بتأسيس الفرق أو الانتماء إليها إلا بعد فترة طويلة من الحماية. وعندما سُمح لهم بذلك، ركزت السلطات الاستعمارية على أهداف الإخضاع والسيطرة، وأنشأت إدارات رياضية تهدف إلى منع ظهور فضاءات رياضية مستقلة[3].

– كرة القدم لعبة حديثة:

بناءً على ما سبق، فإن تاريخ كرة القدم يدحض الادعاءات التي تقول بأن شعوب شمال إفريقيا والشعوب العربية عموماً كانت

بالاعتماد على سياسات عربية، ص. 14.

[1] – يان بوس ورينيه ويندانجل، اللعبة المتمردة. تاريخ سياسي لكرة القدم في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بين العالمي والمحلي، مرجع سابق، ص. 15.

[2] – christopher Ferroro, The buldog, The pharaoh, and The football : British inperialism and Egybtts National Sport and Identity 1882- 1934 ; in : Michael J. Gennaro saheed Aderinto (Eds). Spirts in African History, Politiss, and Identity formation (London/ New york : Routledge, 2019, pp. 181- 195.)

[3] – Phyllis M. Martin, Colonialism, youth and football in French Equatorial Africa, The international journal of the History of sport, Vol.8, no.1, 1991, pp.56-57.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

تمارس كرة القدم قبل فترة الحماية أو الاستعمار. فهذه اللعبة هي لعبة حديثة ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر في بريطانيا، وانتشرت في البلدان الأوروبية، ثم عبر الاستعمار إلى شعوب الجنوب.

ويعتبر الاستعمار الوسيلة التي من خلالها انتشرت هذه اللعبة في الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط. فهي، مثل العديد من أدوات ومظاهر الحداثة الغربية، لم تتعرف عليها هذه الشعوب إلا مع الاستعمار، مثل الطب الحديث والإدارة الحديثة.

– كرة القدم لعبة مسيسة:

لقد تم الحرص على عدم تسييس كرة القدم. فعلى سبيل المثال، جعلت اللجنة الأولمبية الدولية من مبدأ عدم التسييس أحد أهم مبادئها المركزية منذ البداية. لكن الواقع أظهر استحالة الالتزام بهذا المبدأ، وصعوبة فرضه على الدول والحكومات والجماهير ووسائل الإعلام. وبالتالي، أصبح هذا المبدأ يخص أساساً الرياضيين الذين يُمنع عليهم التعبير عن آرائهم السياسية داخل الملاعب أو حمل الشارات ذات الحمولة السياسية[1].

ومع ذلك، لم تكن كرة القدم بمنأى عن التوظيف السياسي من قِبل القوى الاستعمارية، حيث اعتُبرت في البلاد المستعمرة رياضة خاصة بالنخبة والمعمرين، وليست رياضة متاحة أمام الأهالي. وهذا أدى إلى نوع من التمييز الثقافي بين كرة القدم، كلعبة حديثة خاصة بالمستعمر، وبين لعبة الأهالي التقليدية بل والمتخلفة.

منذ بداية ممارستها في البلدان المستعمرة في شمال إفريقيا، لم تكن كرة القدم بمنأى عن الحضور السياسي من قِبل القوى الاستعمارية. وبما أن سكان هذه البلدان اعتبروا هذه اللعبة لعبة المستعمر، فقد ترددوا في البداية في ممارستها، لاسيما أن زي اللعبة وقواعدها كانت مسألة جديدة وغير معتادة بالنسبة لهم.

لذلك، عندما بدأ بعض اللاعبين في ممارستها، كانوا ينضمون إلى فرق المعمرين، ولم تتشكل فرق خاصة بأبناء المدينة أو المنطقة إلا بعد فترة من الحماية. وعند تأسيس بعض الفرق المحلية، اعتُبرت بمثابة وسائل للنضال السياسي والمقاومة، بل والمطالبة بالاستقلال.

ثانيا: كرة القدم والوطنية النضالية

على عكس البلدان التي استعمرها الإنجليز، وصلت كرة القدم إلى المغرب عن طريق الفرنسيين، ولا سيما العسكريين والمستوطنين، الذين بدأوا بممارستها كهواية منذ عام 1913. وقد أُقيمت أول مباراة رسمية في ذلك العام بقرية عين تاوجطات، بين مدينتي فاس ومكناس، وجمعت مستوطنين فرنسيين من المدينتين[2].

إذا كانت كرة القدم تتطلب بنية تحتية من ملاعب ومدرجات ومدرّبين، فقد انطلقت هذه اللعبة في المغرب بوسائل بسيطة وهواة، بما يتماشى مع وضع البلاد في تلك الفترة، وإذا كان التفاعل مع ما جاءت به الحماية الفرنسية قد تباين وتفاوتت درجاته، حيث استقبل المغاربة بعض مظاهر الاستعمار الفرنسي بحفاوة، مثل بعض المنتجات الغذائية، ورفضوا مظاهر أخرى، فإن لعبة كرة القدم لم تُنظر إليها باعتبارها ذات خلفيات سياسية، بل تفاعلوا معها بشكل واسع، من خلال ممارستها بوسائل بسيطة في المدن والقرى، للترويح عن أنفسهم بعفوية وتلقائية.

---

[1]– عبد الكريم أمنكاي وعمار الشمايلية، الحصيلة الأولمبية للأنظمة السلطوية: ها من أثر لشخصية الحكم؟، سيات عربية، العدد 58، شتنبر 2022، ص. 34.

[2] – موقع الجزيرة نت، أعرق الأندية وأشهر اللاعبين وأبرز المحطات.. تاريخ كرة القدم في المغرب، https://www.aljazeera.net/encyclopedia/2022/

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

فقد كانوا يلعبون كرة القدم بكرات يصنعونها بأيديهم من خرق بالية تُجمع وتُكوَّم على شكل كرة.

ولعل هذا القبول للعبة قادمة من المستعمر، هو ما مهّد لتأسيس أول نادٍ لكرة القدم في المغرب، وهو "الاتحاد الرياضي المغربي البيضاوي (U.S.M) "سنة 1913، والذي شكّل رمزًا لكرة القدم المغربية في عهد الاستعمار[1].

غير أن هذا التفاعل لا ينبغي أن يُخفي حقيقة اعتبار كرة القدم آنذاك لعبة نخبوية، خُصصت لممارستها بشكل منظّم من قِبل الفرنسيين المقيمين في المناطق الحضرية، في حين تُرك "الأهالي" لممارستها عشوائيًا وبشكل تلقائي، دون أي تنظيم رسمي.

فإذا كانت كرة القدم قد أصبحت في مطلع القرن العشرين لعبة شعبية في البلدان الأوروبية، فإن السلطات الفرنسية في المغرب شددت في سياساتها على إبقائها لعبةً للمستعمر، ونخبوية الطابع، لا يمارسها إلا الفرنسيون. فقد كانت الخلفية العنصرية حاضرة بقوة في أولى مراحل تنظيم كرة القدم في المغرب.

فبالرغم من أن المصادر التاريخية تتحدث عن تأسيس بعض الأندية المغربية منذ 1913، فإن أول تنظيم رسمي لكرة القدم الذي أطلق عليه اسم "العصبة المغربية (La Ligue Marocaine) كأول منافسة كروية رسمية سنة 1916، لم تكن تحمل من الصفة المغربية إلا الاسم، حيث اقتصرت على الأندية التي تضم لاعبين أوروبيين فقط.

كما أنه على المستوى الإداري، فإن البطولة المغربية كانت تحت وصاية الاتحاد الفرنسي لكرة القدم، الذي كان يضم 22 بطولة إقليمية تمثل المستعمرات الفرنسية، منها 5 في شمال افريقيا وهي: عصبة المغرب، وعصبة وهران، وعصبة الجزائر، وعصبة قسنطينة، وعصبة تونس[2].

على الرغم من الطابع الإقصائي والتمييزي لتأسيس أندية مغربية بمكونات فرنسية، فإن ذلك أتاح وجود بطولة لكرة القدم في المغرب، كان لها تأثير ملحوظ على اللاعبين المغاربة. ففي مطلع عشرينيات القرن الماضي، وبسبب معاناة الأندية آنذاك من نقص في عدد اللاعبين، انفتحت على ضم لاعبين مغاربة، ما ساهم في بروز أولى الأسماء المغربية في البطولة، ومن بينهم "الأب جغو " (Père Jégo)، واسمه الحقيقي لحسن التونسي العفاني، الذي انضم إلى صفوف فريق الاتحاد الرياضي للدار البيضاء (U.S.M) بعد عودته من فرنسا حيث كان يتابع دراسته العليا في مجال المالية. وسيُعد لاحقًا من أبرز المدربين في تاريخ كرة القدم المغربية، لا سيما مع فريق الرجاء البيضاوي.

وقد برز الطابع الإقصائي للسياسة الكروية الفرنسية بشكل واضح في المرحلة الأولى من الحماية، من خلال سنّ قانون يمنع المغاربة من تأسيس جمعيات أو أندية رياضية، إلا بشرط أن يتضمن مكتبها عضواً يحمل الجنسية الفرنسية. وهو ما شكّل عائقًا أمام المغاربة لتأسيس أنديتهم الخاصة، إلى أن بدأوا يتجاوزون هذا الشرط خلال ثلاثينيات القرن الماضي، مستفيدين من وجود جزائريين يحملون الجنسية الفرنسية

وكان من أوائل الفرق التي أسسها المغاربة فريق "الجمعية الرباطية السلاوية"، الذي أُنشئ عام 1932، تلاه فريق الوداد الرياضي البيضاوي في ماي 1937، والذي ضمّ عشرة لاعبين مغاربة ولاعبًا أوروبيًا واحدًا. ولهذا السبب، لُقّب بـ"وداد الأمة"، باعتباره أول نادٍ يُمثّل المغاربة وينافس الفرق الأوروبية، وقد حظي بدعم واسع من مختلف فئات الشعب المغربي.

---

[1]– موقع الجزيرة نت، أعرق الأندية وأشهر اللاعبين وأبرز المحطات.. تاريخ كرة القدم في المغرب، مرجع سابق.

[2] – موقع الجزيرة نت، أعرق الأندية وأشهر اللاعبين وأبرز المحطات.. تاريخ كرة القدم في المغرب، مرجع سابق.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

ونظرًا لأن السلطات الاستعمارية أحاطت تأسيس الأندية المغربية بجملة من الشروط، وسخّرت كرة القدم أداة للتمييز وإبراز تفوّق النخبة الفرنسية، فقد لجأت النخب المغربية، انطلاقًا من أواسط الثلاثينيات وبعد تأسيس كتلة العمل الوطني وتبلور الوعي التحرري، إلى توظيف كرة القدم كوسيلة للنضال السياسي والتعريف بالقضية الوطنية. فبدأ المغاربة بتأسيس عدد من الأندية، من بينها الجمعية الرياضية السلاوية، واتحاد الفتح الرباطي، والمغرب الرباطي سنة 1930، والمغرب البيضاوي سنة 1938، والمغرب الفاسي سنة 1946، والرجاء البيضاوي سنة 1949، والكوكب المراكشي سنة 1947.

ومع تزايد هذه الأندية الوطنية، أصبحت كرة القدم جزءًا لا يتجزأ من الفعل السياسي، تمرّر من خلالها رموز وخطابات الهوية الوطنية والإسلامية والثقافية.

وكان يُنظر إلى كل فوز يحققه نادي مغربي على أنه انتصار معنوي على سلطات الاستعمار. ومن أبرز الأحداث التي تعكس هذه الحمولة السياسية للعبة، ما وقع في مدينة مكناس حين استضاف فريق "الرشاد المكناسي" (الفريق الفرنسي المحلي) فريق الوداد البيضاوي؛ إذ انقلب الجمهور المكناسي على فريقهم وأخذوا يشجعون الوداد، مردّدين شعارات الحركة الوطنية المطالبة بالاستقلال. وقد ردّت سلطات الاستعمار على ذلك باستخدام العنف الشديد، مما أدى إلى سقوط مئات القتلى[1].

أما في منطقة الحماية الاسبانية، فقد تميزت بغياب بطولة أو منافسة كروية، وأجبرت الفرق الشمالية المؤسسة على المكوث في الأقسام المتدنية للبطولة الاسبانية. وقد بدأ تأسيس أولى الفرق منذ 1917، حيث تم خلق عدد من الفرق في مدينة تطوان، والحسيمة كالمؤسسة الاسبانية المؤسس في 1927، والجمعية الرياضية في عام 1930، ومدينة الناظور كفريق نادي الناظور لكرة القدم في عام 1933، وفيلا الناظور في عام 1942.

ولكن الاستثناء الوحيد في هذا الإطار كان هو الانجاز الذي حققه النادي التطواني، حيث تمكن في موسم 1950-1951 من الصعود إلى القسم الوطني الاسباني الأول، وأصبح يلعب ضد ف. س. برشلونة وريال مدريد.[2]

إن كرة القدم خلال الحماية بدأت لعبة تمييزية ونخبوية وظفت الاقصاء وانتهت إلى لعبة نضالية يعتمدها المغاربة لمواجهة المستعمر والمطالبة بالاستقلال والحفاظ على الهوية الوطنية، وبالرغم من أنها لعبة حديثة وجاءت مع الاستعمار فإن جاذبيتها وجماهيريتها ساهمت في تزايد عدد الممارسين لها في المغرب.

في مواجهة الإقصاء والتهميش، سعى سكان البلدان المستعمَرة إلى تأسيس فرق لكرة القدم، سواء في شكل جمعيات ذات طابع إسلامي أو نوادٍ حديثة، مستفيدين في ذلك من الهوامش التي أتاحتْها قوانين الاستعمار. وحين نجحوا في ذلك، لم يُنظر إلى المباريات ضد فرق المستعمِر أو الفرق التي تضم أغلبية من المعمّرين على أنها مجرّد مباريات رياضية، بل اعتُبرت نزالات نضالية وسياسية، هدفها لم يكن الترفيه فقط، بل تحقيق انتصارات تعزّز الرصيد الوطني وترفع من الروح المعنوية.

وهكذا بدأت الأندية الجديدة، التي أسّسها أبناء البلد، تواجه الفرق القديمة التي كانت في الغالب تتكوّن من المستعمِرين، في مشهد يتجاوز الرياضة ليعبّر عن مقاومة رمزية للاستعمار.

إن انتصارات الفرق الوطنية اعتبرت انتصارات سياسية على المستعمر، فبعد أن أحرز نادي الوداد البيضاوي بطولة شمال افريقيا

---

[1] – موقع الجزيرة نت، أعرق الأندية وأشهر اللاعبين وأبرز المحطات.. تاريخ كرة القدم في المغرب، مرجع سابق.

[2] – عبد العزيز الطريبق، هذه تفاصيل عن التاريخ الحقيقي لنادي أتلتيكو تطوان الإسباني،
https://www.hespress.com/942398

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

لكرة القدم ثلاث مرات متتالية خلال المدة 1948-1950 اعتبر ذلك بمثابة انتصار على الاستعمار الفرنسية وبداية لضعفه وتراجعه في المغرب[1]. فالأندية المغربية والجمعيات الاسلامية لكرة القدم لعبت دورا مهما في نشر الخطاب الوطني التحرري، وفي التكتل ضد المستعمر، والنضال من أجل الاستقلال عن فرنسا، لقد شكلت إطارا مهما للتعبير عن المشاعر الوطنية.

ثالثا: كرة القدم والسيادة

بعد حصولها على الاستقلال، ورثت الدول المستعمَرة العديد من المكتسبات الإدارية والمؤسساتية والسياسية والثقافية. فكما ورثت إدارة حديثة وبنية تحتية، فقد ورثت أيضًا رياضة كرة القدم، التي تحوّلت من لعبة منظّمة وموجَّهة من قبل سلطات الحماية إلى وسيلة تعبّر من خلالها السلطات الجديدة عن سيادتها وهويتها القومية.

وقد تبنّت الدول المستقلة حديثًا النموذج الرياضي الاستعماري نفسه، مع الحفاظ على أبرز مقوماته، دون إخضاعه لنقد بنيوي أو تعديلات جوهرية تراعِي الخصوصيات المحلية والثقافية لكل بلد.[2]

فإذا كانت السلطات الاستعمارية قد أسّست كرة القدم لتكون رمزًا للتقدّم والتحديث وفق منظورها، فإن الحكومات في البلدان التي نالت استقلالها تبنّت هذه الرياضة كوسيلة للتعبير عن السيادة الوطنية والاستقلال السياسي، ثم كأداة للضبط الاجتماعي وكسب المشروعية والقبول لدى المواطنين. ولهذا، كان من أولى الخطوات التي قامت بها هذه الدول بعد الاستقلال تنظيم هذه اللعبة وخلق بطولة وطنية تعبّر عن الانتماء وتوحّد الجماهير تحت راية واحدة.

لقد حافظت السلطات الجديدة في البلدان التي نالت استقلالها على كرة القدم كإرث استعماري. ورغم أن الأندية الكروية لعبت دورًا مهمًا في التعريف بقضية التحرر والنضال من أجل الاستقلال، فإن هذه السلطات لم تحافظ على القيم النضالية التي كانت تجسدها الرياضة. بل اتخذت منها رمزًا للسيادة ومعبرًا عن مفهومها الخاص للوطنية، وهي الوطنية التي تخدم توجهاتها الإيديولوجية ومصالحها السياسية.

فبينما ركزت على تكوين منتخب وطني، وتنظيم بطولة وطنية، ووضع قوانين لتأطير اللعبة، وإنشاء إعلام رياضي وبنية تحتية، فإنها لم تُقدِم على تحديث كرة القدم كما حدث في بريطانيا وفرنسا، حيث حافظت على طابعها غير الاحترافي لفترة طويلة. كما جعلت من الأندية منصات لتعزيز نخبها السياسية والاجتماعية. وبالتالي، عززت الترابط بين السياسة والرياضة عمومًا، وخاصة كرة القدم باعتبارها لعبة جماهيرية.

ورغم اتساع قاعدة ممارسيها وانتشارها في مختلف مناطق البلاد، إلا أن كرة القدم ظلت محكومة بالكثير من عناصر الضبط الأمني، مما أفرغها من بعض جوانبها الرياضية الحرة التي قد تُسهم في تحديث وتطوير اللعبة.

عند حصول البلدان المستعمَرة على استقلالها، جعلت تكوين منتخبها الوطني أولويةً، باعتباره تعبيرًا عن الهوية الوطنية والسمة القومية. وقد أُعتبر المنتخب الوطني أداة لتحقيق الوحدة الوطنية، ذلك أنه بالرغم من وجود صراعات إقليمية وتيارات إيديولوجية متنافسة، واجهت السلطة السياسية في هذه البلدان انتفاضات وانقسامات واحتجاجات ضد النظام القائم. ولهذا، كان تكوين

[1] – يان بوس ورينيه وايندانجل، اللعبة المتمردة. تاريخ سياسي لكرة القدم في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بين العالمي والمحلي، مرجع سابق، ص. 18.

[2] Mahfoud Amara,Sport, politics and Society in the 1rab world, New york : Palgrave Macmillan, 2011, pp.7- 11.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

منتخب وطني لكرة القدم بمثابة أداة لتوحيد المواطنين من مختلف الاتجاهات والانتماءات.

ففي حين كانت هذه البلدان المستعمَرة قد حدّت من إمكانية وجود منتخب وطني خلال فترة الحماية، فإنها بعد الاستقلال اعتبرت مسألة تكوين هذا المنتخب رمزًا للسيادة الوطنية وتجسيدًا لها.

وتكوين منتخب وطني والمشاركة في المسابقات الدولية بعد الاستقلال يعني، أولاً، الانتقال من غياب منتخب وطني إلى وجود منتخب يُمثل الوطن ككل في المحافل الدولية. ثانيًا، يعني التمكن من توفير إطار يجمع جميع المواطنين ويعكس الهوية الوطنية، حيث يُعزَف النشيد الوطني وتُثار مشاعر الحماس والتشجيع، مما يسهم في تنمية وتعزيز مشاعر الوطنية لدى الشعب[1].

فإذا كانت الهوية تتميز بطابعها الجمعي، ويمكن تحقيقها من خلال عدد من الوسائل لا سيما الرمزية منها[2]، فإن المنتخب الوطني والاستثمار فيه يعد إحدى هذه الوسائل.

ولقد استمر الاستثمار السياسي في كرة القدم بعد الاستقلال، ولكن بتوجهات وخلفيات جديدة. فالنضال الذي كان وراء إنشاء بعض الأندية في عهد الحماية تحول إلى استثمار من قبل السلطة السياسية في كرة القدم، من خلال التركيز على المنتخب الوطني وإنشاء بطولة وطنية تعزز الوحدة الوطنية والهوية، وتُرسّخ مشروعية النظام السياسي الجديد.

وفي المغرب، كانت من أولى القرارات الكروية التي اتخذتها الحكومة بعد الاستقلال هي تأسيس الاتحاد المغربي لكرة القدم بشكل رسمي في يوليو 1956، تلا ذلك انطلاق أول بطولة مغربية في شهر شتنبر من نفس السنة. كما انضم المغرب إلى الاتحاد الدولي لكرة القدم (فيفا) في 1960، وأصبح عضوًا في الاتحاد الأفريقي منذ 1959.

خاتمة:

لقد شكلت كرة القدم في البلدان العربية وشمال إفريقيا أكثر من مجرد لعبة رياضية؛ إذ تحولت عبر مسارها التاريخي من أداة استعمارية نخبوية إلى وسيلة فعالة للنضال الوطني، ومن ثم إلى رمز للسيادة والوحدة الوطنية بعد الاستقلال. لقد كان لانتشار كرة القدم في ظل الاستعمار دور مزدوج: من جهة، وسيلة للضبط والسيطرة الثقافية، ومن جهة أخرى، فرصة لتكوين فضاءات مقاومة تجسدت عبر تأسيس الفرق الوطنية واستخدام الملاعب كمنابر للتعبير السياسي. ومع بزوغ فجر الاستقلال، استثمرت السلطات الجديدة هذه الرياضة في تعزيز شرعيتها وبناء الهوية الوطنية، وإن بقيت رهينة نموذج استعماري لم يتم تجاوزه بالكامل. وهكذا، تجسد تاريخ كرة القدم في هذه المنطقة حكاية معقدة من الهيمنة والمقاومة، ومن التوظيف السياسي والبحث عن الذات الوطنية، حكاية ما تزال فصولها تكتب إلى اليوم في ملاعب المنطقة وشوارعها.

---

[1] – سني الخطيب، كأس العالم 2022 فضاء لتصدير هوية قطرية عالم – محلية، سياسات عربية، العدد 58، شتنبر 2022، ص ص. 76- 79.

[2] – تقسم غابرييلا الجينيوس الرموز إلى أربع فئات: الرموز اللفظية، الرموز التصويرية، الرموز الحركية والرموز الحسية المادية، والتي تشكل لصنع الهوية الوطنية وتشكيلها راجع:

- Gabriella Elgenius, Expressions of Nationhood ; National symbols and ceremonies in cintemmporary Europe, Degree of Doctoral philosophy, united Kingdom, university of London, 2005, pp.114- 116.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/